

المقطف

الجزء الرابع من السنة التاسعة عشرة

١ ابريل (نيسان) سنة ١٨٩٥ الموافق ٦ شوال سنة ١٣١٢

اسماعيل باشا الخديوي السابق

قضى قيصر لم تغن عنه قصوره وجبل كسرى ما حتمه مجادله
وما صد هاجكا عن سامان ملكه لا منعت منه اباه صرايله
وما نفس الانسان الا خزامه بايدي المنايا والليالي مواحله
لو كان في الكون عالم سكانه سواه في الجاه والسودد ورأوا ابناء آدم يموت الف منهم
فلا يعبأ بهم ويموت واحد فميمد لموتيه المسكونه لانكروا علينا اتنا من طينه واحده ولما
انجلت عن نفوسهم موره الانكار الا اذاراونا نتساوى تحت الثرى الرفيع والوضع
والمالك والمملوك . لكن ما يساوي بين اجسامنا هنالك لا يساوي بين نفوسنا لان
النفوس الكبيرة التي يمتاز بها بعضنا على بعض لا تدفن في التراب والمهم العلية لا تغيب
تحت الثرى بل تبقى آثارها ما دامت الاكوان

ولقد شهد اهالي هذا القطر في اوائل الشهر الماضي مشهداً يعمظ به الحكيم ويصحو
منه الغافل شهدوا الخية انشبت اظفارها بمن سامت همته الثريا وهابت صولته نواذب الايام
بين كان مثل الدهر بطشاً وصولته يرجى ويمشى عنده النفع والضر
فان اسماعيل باشا الخديوي السابق اجاب داعي الردى بعد اعتلال طويل انتهك قواه
وحنين الى وطن فارقه ثم لم تكتحل عينه بمراه

وهو ابن ابراهيم باشا بطل قونية ونصيبين ابن محمد علي باشا الكبير معيد العمران
الى الديار المصرية . ولد في ختام سنة ١٨٣٠ للميلاد في عهد ابيه وجده حينما كان نجمها

في اوج مجده . ثم لما توفي ابوه في الثالث عشر من ذي الحجة سنة ١٢٦٤ (١٠ نوفمبر سنة ١٨٤٨) وولي عباس باشا الاول مكانه كان عمره اقل من تسع عشرة سنة وكان الثالث بحسب قانون الوراثة الذي صدر به الخط الهمايوني لمحمد علي باشا سنة ١٨٤١ ومفاده ان الوراثة للاكبر . وبأتي قبله سعيد باشا عمه واحمد رفعت باشا اخوه الاكبر . وتوفي عباس باشا الاول في ١٨ شوال سنة ١٢٧٠ (١٤ يوليو سنة ١٨٥٤) وتولى عمه سعيد باشا وفي ايامه غرق اخوه احمد رفعت باشا عند كفر الزيات في الثلاثين من شهر رمضان سنة ١٢٧٤ (١٤ مايو ١٨٥٨) فافضت ولاية العهد اليه

وارسله سعيد باشا الى اوربا مراراً في سفارة لدى البابا والامبراطور نبوليون الثالث ولم يُعَمَّ الغرض منها تماماً الى الآن وانا به عنه لما ذهب الى الحج الشريف . وتوفي سعيد باشا في الثامن عشر من شهر يناير سنة ١٨٦٣ (٢٧ رجب ١٢٧٩) خلفه الفقيه وهو ابن اثنتين وثلاثين عاماً وكان قد جمع ثروة طائلة حتى قيل ان دخله السنوي كان نحو مئة وستين الف جنيه

وسنة ١٨٦١ نشبت الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الاميركية فاشتغل اهلها بها عن زراعة القطن وكانت البلاد الانكليزية تبتاع من القطن الاميركي نحو ١٤٠٠ مليون رطل في السنة فلم تقدر ان تبتاع منه سنة ١٨٦٢ سوى ٥٢٤ مليون رطل فارتفع ثمن القطن المصري ارتفاعاً فاحشاً حتى زاد خمسة اضعاف وكانت غلته تقدر بخمسة ملايين جنيه فصارت تبلغ خمسة وعشرين مليوناً فسل على اسماعيل باشا ان يتقاضى من الفلاحين عشرين مليوناً من الجنيهات كل سنة فوق الضرائب التي كانت يتقاضاها منهم وهذه الاموال الطائلة سهلت عليه الاتاق فانتقمها في سبل مختلفة كما سيبي

وجد في طلب العلاء و منافسة الملوك غير ضنين بال طالما تيسر له جمعه من البلاد او استدانته من المرايين فضعف الجزية للباب العالي حتى منحه لقب خديوي مصر وهو اول من لقب به وافق على فرمان الذي يحصر الخديوية بنسبه نحو اثنتين وثلاثين مليوناً من الجنيهات

وكان شديد الميل الى الهندسة والرسم والتخطيط منذ نعومة اظفاره فتشغف بتنظيم المدن وتكثير المباني وكان يعلق في غرفته رسم القاهرة ليراه كلما وقف لفضل وجهه ويستقرى تنظيمها عاقداً النية على جعلها مثل مدينة باريس فاصلحها اصلاحاً يشكره عليه السلف ما توالى الايام

وكان المسبودة لسبس قد افتح سعيد باشا بفتح ترعة السويس والى شركة لتلك وربط الحكومة المصرية بشروط قد تعود عليها بالمشاكل وفي جملتها انه يحق للشركة ان تحفر ترعة حلوة من النيل الى ترعة السويس يستقي منها العال وتحيى الارض الموات التي على جانبيها اذا لم يكن لها مالك وتملكها تسمكاً وتسمين سنة وتحفر ترعة اخرى عند من الترعة الاولى الى مدينة السويس جنوباً والى بورت سعيد شمالاً والارض الموات التي تروىها هذه الترعة وتحييها تكون ايضاً للشركة لمدة تسع وتسعين سنة . ولما نفدت اموال الشركة بعد وفاة سعيد باشا اخذ رؤساؤها يحشون عن واسطة لجمع المال فافتعوا اسمعيل باشا ان انشاء احدى الترعين يثير الخصومات بينهم وبين اصحاب الارض التي تجاوزها ولذلك فهم يتنازلون عنها كرمًا منهم اذا كان ينشئ لهم الترعة الاخرى . وكان يحسب ان ترعة السويس ستدرك الخير العظيم على هذا القطر فقيل ما طلبوه منه لكنهم حقوا عليه بعد ذلك لما امر الباب العالي بابطال السخرة وطلبوا منه العوض عما خسروه من ابطال الترعة الحلوة فحكم الامبراطور نپوليون الثالث بحكم ان ابطال حق الشركة في فتحها يخسرها اموالاً كثيرة كان يمكن ان تربحها من الارض التي تحيها ومن ثمن الماء الذي تبيعهُ للرعي ولذلك فعلى اسمعيل باشا ان يدفع اليها سبعة ملايين ونصف مليون من الفرنكات وهي الاموال التي انفقها على هذه الترعة بحسب دفاترها ومليونين ونصف مليون فرنك رباً لهذه الاموال وستة ملايين فرنك بدل ما كان يمكنها ان تربحهُ من ثمن ماء الري وثلاثين مليون فرنك ثمن ما كان يمكنها ان تحيهُ من الارض الموات . ثم ادعت ان فبوليون اغضى عن حق آخر من حقوقها وهو ان الترعة الحلوة لومت لصار فيها بحيرة كبيرة يتولد فيها السمك ويكثر ويصاد ويباع ويكون منه الربح الوفير . فلما رأى اسمعيل باشا ذلك بعد ما اصابهُ من تحكيم نپوليون رضي ان يدفع اليها ثلاثين مليوناً من الفرنكات بدل هذا الحق الجديد فاخذتها منه واخذت فوقها عشرة ملايين اخرى من الفرنكات . ولما لم يكن المال ميسوراً لديه حينئذ رهن عندها ١٧٧٦٦٢ سهماً من سهام ترعة السويس لتأخذ ربحها الى اواخر سنة ١٨٩٤ وكان سعيد باشا قد ابتاع هذه الاسهم قبل وفاته

وتم حفر ترعة السويس وفتحت في شهر نوفمبر سنة ١٨٦٩ باحتفال عظيم حضرهُ كثيرون من الملوك والعظماء ويقال انه اتفق حينئذ على زينة القاهرة وضواحيها مئة مليون من الفرنكات عدا ما انفقهُ على ضيوفه وعلى مدينة الاصمعيلية نقطة الاحتفال

وهذا الاتفاق الطائل والسنة الحاتمي اضطراه الى استئدانة الاموال بالربا الفاحش . ولم يكن يحسب الدين عاراً على البلاد او حطة من قدرها لعلهم ان اعظم ممالك اوربا وانسما أكثرها ديناً . فتولى الاريكة المصرية ودين البلاد نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات وغادرها ودبها نحو مئة مليون لكنه لم ينفق المال الذي استئدانه او جمعه على نفسه كله بل انفق جانباً كبيراً منه في الاعمال النافعة كانشاء المدارس وتوسيع الترع وإقامة الجسور وتنظيم الشوارع وعلته انفق على هذه الاعمال أكثر مما كانت تقتضيه لكن ذلك شائع في كل الممالك فلا تستطيع حكومة ان تباري الرعية في التدبير والاقتصاد . وفي اوائل سنة ١٨٧٦ انشأ الحاكم المختلطة وهو يحسب انها ستكون عضداً له في التسلط على الاوربيين نزلاء هذا القطر والذين لجأوا الى الحماية الاوربية من سكانه فكان من باكورة اعمالها الحكم على الحكومة ودوائرها على املاكه الخاصة واملاك العائلة الخديوية . فزاد ارتباكها ارتباكاً واضطراً ان يبيع اسهم ترعة السويس مع انها كانت مرهونة كما تقدم وان يتنازل عن املاكه للحكومة وانشأ حكومة دستورية جعل نوبار باشا رئيساً لها ورضي بالمراقبة الاوربية على المالية المصرية وعين المسند رفرس ولسن ناظرًا للمالية والمسبودة بغير ناظرًا للاشغال وكان ذلك كله على غير مراعاة فثارت ثائرة الجنديين واضطرتهم ظاهراً الى قلب الوزارة لكن فرنسا وانكلترا ابنا الأبقاء وزيريهما فيها فابقاها وجعل رئاستها لري عهد المرحوم توفيق باشا الخديوي السابق واشتكت المانيا والنمسا حينئذ من ان احكام الحاكم المختلطة لا تنفذ وكأنها ارادنا التعرض للشؤون المصرية فاضطرت انكلترا وفرنسا ان تطلبنا من الباب العالي خلعة تخلع في السادس والعشرين من شهر يوليو (حزيران) سنة ١٨٧٩ وقضى ما بقي من ايامه في اوربا والاستانة الى ان ادركته المنية فيها في الساعة الثامنة من صباح اليوم الثاني من شهر مارس الماضي وهو في الخامسة والستين من عمره . فراح الذي تضرب بسطوته الامثال وترعد لذكر صولته قلوب الرجال ولم يبق منه غير ما بقي في دار الخلف التي انشأها من عظام النظام ورم سلاطين الانام . لكن ذكره باق في التاريخ الخلد لذكر الرجال الحاكم بالعدل في الاقوال والاعمال الناصب ميزانه في احدى كفتيه ظفر التقيد بلقب الخديوية . وحصرها في ذريته دون غيرها من العائلة المحمدية العلوية . وفتح دارفور وضما الى الاملاك المصرية وكشف المجهولات الافريقية . وتوسيع نطاق الاملاك البرقية والسكك الحديدية . وتكثير الترع واقامة الجسور وبناء مدينة الاسميكية . وانشاء دار

التحف المصرية والكتابة الخديوية . والاخذ بناصر المعارف واربابها في مصر وغيرها من البلاد الشرقية . وبناء القصور والمشاهد وانشاء الحدائق وتنظيم الطرق والشوارع وغرس الاشجار على جوانبها وجر الماء اليها واقامة الانوار فيها الى غير ذلك مما لا يستوعب وصفه في مقالة ولا مقالات . وفي الكفة الاخرى اساليب البدخ والتبذير والاسراف التي افضت الى العسف والعنف وسوق الرعية بعزم شديد وسياط من حديد حتى اذابتهم الرهبة واضنتهم الفاقة وساءت حال الحكومة وحل الضيق بآلتها وثقلت ديون اوريا على كاهلها فاقتضى ذلك تعرضها لشؤونها وصيرورتها الى ما صارت اليه

ومهما كان من حكم التاريخ بعد وزن ما للفقيد وما عليه من المساعي التي اراد بها محاكاة بلادها للبلاد الاوربية في عمرائها وحضارتها ونظامها وحرمتها ولكن مع بقاء حكماها شرعيين مستقلين عن كل قوة اوربية فلن ينقض التاريخ بعد وفاته ما اثبتته في حياته من انه كان من كبار الرجال ورث البأس والصولة عن ابيه والاقدام وكبر المهمة عن جده وصغرت لديه عظام الامور وعانت عليه صماها حتى اقدم على ما تكاد كبار الملوك تحجم عنه . ولو اوتي من قوة التدبير والعباية بطرق الاقتصاد قدر ما اوتي من الاقدام على العظام والشروع في الاعمال العمومية لاطبق الناس على عدو من نوابغ الرجال

ولو اثر ما غرسته يده في زمانه لما خاضه عصره واخى عليه دهره . فان القناطير المقطرة التي بذلتها راحته على الجنات والمنزهات والمشاهد والملاهي كالاويرة الخديوية التي اتمها في خمسة اشهر ليفكها فيها ملوك اوريا وسراتها عند فتح ترعة السويس ونحو ذلك مما كانت في زمانه ينفق قليلين ويضر كثيرين اصبح اليوم كالمغناطيس يجذب السياح الى هذا القطر حيث يذنون الالوف المولفة . ولو سعى المصريون في طرق اكتسابها منهم ولم يتركوا معظمها مضيقا باردا لبعض الاوريين المقيمين بينهم لرجعوا منها في العام الف الف جنيه او حوالها . وجلها مما شيدته يمين الفقيد في هذا القطر وتركته رأس مال ان يعلم اصول المتاجرة به . ومن يدري ان كان التاريخ لا يحكم على مصر الايام ان الفقيد ابتاع الفرج لبلاد الضيق الذي حاق بها في ايامه وان الاعمال التي استازف فيها ثروتها وحرمها من ارباح ترعة السويس من اجلها عادت فاجبت موامتها وحولت ميازيب النضار اليها . فكم من عمر قصير عاجل جاء بيسر طويل آجل . ولولا قبض اغصان الكروم ما نضرت ولولا مقاساة التعب والمشقة ما قويت الابدان ولا اشتدت

ولما بلغ نعيه الديار المصرية اجتمع اعضاء الاسرة الخديوية بمنزلة الجناب العالي ويمزي بعضهم بعضاً واقبل سراة القوم بمنزلة عن هذا المصاب الفادح . وأمرت السفينة الخديوية التي كانت حينئذ في مياه الاستانة العلية بحمل جثته الى هذه الديار فبلغت الاسكندرية في العاشر من الشهر . ومضى الجناب العالي الى الاسكندرية مع حضرات الامراء اعضاء الاسرة الخديوية ونظار الحكومة المصرية للاحتفال بتشييعها الى العاصمة فساروا بها في اليوم التالي بموكب عظيم من سراي رأس التين الى محطة سكة الحديد ومن ثم الى العاصمة بثلاثة قطار الاول يقل حرم الفقيد وحاشيته والثاني وهو القطار الخاص يقل سمو الخديوي المعظم وحاشيته والثالث يقل حضرات الامراء اعضاء الاسرة الخديوية ونظار الحكومة المصرية ودولتو راتب باشا السردار السابق وغيرهم من كبار رجال الحكومة ومعهم جثة الفقيد في مركبة خاصة . وبلغت الجثة العاصمة في المساء فتركت في غرفة من دار المحطة بحرسها الجلال والإعظام ثم دفنت في اليوم التالي بما يليق من الابهة والاكرام كما سيحيى في آخر هذا الجزء

ارصانة

لم يتبع لنا ان نرى الفقيد في هذه الديار ولا في قطر آخر فنقلنا ما يلي من اوصافه عن صديق اخلاص الرد له ونظر في اعماله نظر المتقد المتصف . قال ما خلاصته كان اسمعيل باشا قصير القامة اشقر الشعر كبير الاذنين ضخم الراحين كث الحاجبين يكاد شعرها يغطي مقلتيه . اذا صمت انخفض جنته الايسر حتى يكاد يغطي عينه وحديق بعينه اليمنى الى الناظر اليه كأنه يستجلي ضباؤه . واذا تكلم فتح عينه اليسرى وانغمض اليمنى . وكان جالساً يقولون انه يسمع بين وبينكم بأخرى . وقيل له في ذلك فقال "نعم ولكنني افكر بالاشئين معاً" . وزاد سمعه بعد ان اكتمل حتى صار يمشي الخورلى وبما خص به انه كان يسبح جليسة حتى لا يخرج من لدنه الأ وهو راض مقتنع بما القاه اليه . لكن تأثره سحره لم يكن طويلاً في النفوس فيذهب الاقتناع بذهابه وهذا سر الحادثة التالية ومئات مثلها . ذلك انه قال لي مرة لقد ضقت ذرعاً بالقتل فلان فانه يأتيني ويوافقني على كل ما اقله له ثم يمضي ويكتب الى حكومته يخالفني في كل ما واقني عليه . فلماذا يقول في وجهي شيئاً ويفعل في غيبي غيري . فقلت له اما سألتموه عن ذلك . فقال نعم سأله عشرين مرة فكان يقول لي انه اخطأ في ما بعث به الى حكومته ويعمدني باصلاحه ثم يمضي ويفعل كما فعل اولاً فاحيلني به وانا لا استطيع ان اجلس معه وقتما يكتب

وكان قوي البداهة لا تقوته بادرة الاستدراك. فقد عرض مرة مالا على مكاتب احدى الجرائد الشهيرة التي لا تُرثى ولم يكذب بتم كلامه حتى استدركه قائلاً "انني اعرض ذلك عليك لكي ارى ما عرضه يُرفض ولو مرة واحدة في العمر كما سيرفض الآن حتماً". وامثال ذلك كثيرة

اما صحرة جلّاسه فليس لانه كان يتجملهم بالحديث بل لانه كان شديد الدراسة فيعرف اخلاقهم ويكلم كلّا منهم على قدر فهمه حتى لقد كانت الاضداد يخرجون من مجلسه وكلهم راض بما قاله له ولو كانوا على طرفي تقيض. فاذا كان جلّيسه من اهل الادب والظرف حادثه بما يشف عن أدب راسخ وظرف رائع. واذا كان من ارباب الاعمال كلّمه عما يتعلق بأعماله كانه من البارعين فيها. وفلت له مرة في ذلك فابرت اسرته وقال "من الناس من يحسن ركوب الفرس ومنهم من يحسن ركوب الجمل ومنهم من يحسن ركوب الحمار اما الفارس الماهر فيحسن ركوب الثلاثة على حدٍ سوى"

وكان مقصدًا ومسرّقا في وقت واحد فقد تملكته ملكة الاقتصاد قبلما تولي البلاد وكثر ماله بها ثم تملكته ملكة الاسراف ايضا حينما صارت الاموال تنهال عليه كالسيل لكن ملكة الاقتصاد لم تزياله فكان يقصد بالدرهم ويسرف بالمليون في وقت واحد. ولم يقم في الديار الغربية ولا في الشرقية من جاد جوده وقت الاحتفال بترعة السويس فقد اباح لكل مدعوه من الاوربيين ان يأتي الديار المصرية ويازل في الفخر نزها ويسافر براً وبحراً مدة ثلاثة اشهر من غير ان يدفع غرماً واحداً هذا ما قابل به ضيوفه الملوك من الابهة والاكرام الذي لم يسمع بمثلها في غير الايام

وكان مجلسه صحفوقاً بالمهابة والانس فيجد وقت الجلد ويهزل وقت الهزل. قيل اغتاض مرة من فنصل من قناصل احدى الدول ثم رضي عنه بتوسط شخص آخر فبعث الى زوجة الفنصل سواراً ثميناً جداً. وكانت هذه المرأة تأكل المعكرونة على اسلوب يشتم منه. فقال له الوسيط على م تهدي اليها هذه الهدية الثمينة فقال "إمّا هذه الهدية وإمّا ان ادعوها الى الطعام. والحرب اسهل علي من رؤيتها تأكل المعكرونة" وكان الزوار فيفتحون الحديث معه في المقابلات الرسمية بذكر الحر والبرد فيقول احدهم مثلاً الحر شديد. فيقول له نعم ولكنه في الاسكندرية اشد منه هنا. فيقول المتكلم ان سبب ذلك جفاف الهواء في القاهرة ورطوبته في الاسكندرية. فيقول له نعم وهذا قد اختبرته بنفسي. وفي ذات يوم دخل عليه فنصل وافتتح الحديث معه على جاري

العادة وذلك حينما كانت دول اوربا ساعية في خلعهم فقال للقنصل " انني اعلم ما تريد ان تقول فليكن معلوماً عندك انني صرتُ اعنقدان هواء مصر رطب وهواء الاسكندرية جاف " وقيل ان خلع بليلة جاءه المستر لاسلس قنصل انكثارا والمسيو تريكو قنصل فرنسا وجعلا يلحان عليه لكي يتنازل لابه فاجب قائلاً ان الباب العالي لا يسمح لي بذلك فقال له قنصل فرنسا انك قد خالفت الباب العالي في عشرين امراً فلي م لا تخالفة في هذا الامر . فقال له اسمعيل باشا " اذكر لي امراً واحداً منها ان استطعت " . اما المسيو تريكو فحاشته ذاكته حينئذ ووقف صامتا . فنناول المستر لاسلس الحديث وقال له " اما يجدر بسموكم ان تظهروا شيئاً من استقلالكم عن الباب العالي " فاجابه قائلاً " وما الفائدة من هذا الاستقلال اذا كان اول ثمرة من ثماره النزاع عن كل ما يدي من السلطة " . فدهش المستر لاسلس من هذا الجواب المخم

وكان شديد المحافظة قوي الذاكرة اختلفت معه مرة سنة ١٨٧٥ في مسألة تتعلق بتوعة السويس فتلا علي نحو عشرين سطراً من رسالة اليه أرسلت اليه منذ عشر سنوات فكتب ما تلاه في الحضرة وحدث البحث عنه في الرسالة فوجدت انه ذكره حرفاً حرفاً وكان يتطبر من يوم الخميس فلا يعمل فيه عملاً ذا شأن . وحدث انه كان راجعاً مرة من الاسكندرية الى مصر فيجته المحروسة وكانت اسرع السفن كلها حينئذ . فقيل له انها تصل الاسكندرية يوم الخميس فاصر ان تصل يوم الاربعاء فقال له الريان ان ذلك ضرب من المحال . فاستدعى مدير آلياتها وكان انكليزياً وامره ان يوصلها يوم الاربعاء فقال ان ذلك ممتذر فقال له اسمعيل باشا يجب ان تفعل . فقال ان انا زدت سرعتها تزقت آلياتها ارباباً . فقال له ان بلتنا الاسكندرية يوم الاربعاء فلك مني رتبة بك وان بلغناها يوم الخميس عزلتك من منصبك . فوصلت المحروسة الى الاسكندرية يوم الاربعاء ونال الرجل رتبة بك

وكان حسن الفرائز واسع المدارك لكنه كان يحسب ان مشيئته فوق كل شريعة ومصليته فوق كل مصلحة فان توسم في امره خيراً وأنس فيه نفعاً قرّبهُ ورفع شأنهُ ولو لم يجد منه نفعاً لنفسه وان توسم فيه شرّاً ورأى منه ضرراً اقضاهُ واراح الناس منه . وعلى هذا المبدؤ ساس البلاد المصرية وهو سر ما رأته في ايامه من السراء والظراء هذا وقد نشرنا صورته في المقتطف منذ خمس عشرة سنة وسننشر صورة اخرى اصح منها في جزئه آخر لان الصور الميسور نشرها الآن لا تقااله تماماً